

مقدمة

يُلفت القرآن الكريم أنظار الإنسان إلى مظاهر الطبيعة المتنوعة، لا لمجرد التأمل الجمالي، بل ليدعوه إلى التفكير في سنن الله الكونية. ومن أعجب هذه المظاهر تنوع الفواكه والخضروات واختلاف ألوانها وأشكالها وطعومها، رغم أنها قد تُسقى بماء واحد وتنبت في تربة واحدة. لقد كشف العلم الحديث عن أسرار دقيقة في علم النبات والوراثة تفسر هذا التنوع، لكن القرآن الكريم أشار إليه بدقة لافتة قبل أكثر من أربعة عشر قرناً.

الإشارة القرآنية إلى تنوع النبات

قال تعالى:

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾
سورة الأنعام – الآية (141)

وقال تعالى:

﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِصِلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾
سورة الرعد – الآية (4)

وقال سبحانه:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾
سورة فاطر – الآية (27)

هذه الآيات تجمع بين ثلاثة محاور أساسية: اختلاف الطعم، وحدة مصدر الماء، واختلاف الألوان. وهي محاور تشكل أساساً علمياً دقيقاً لفهم التنوع النباتي.

اختلاف الأكل ووحدة الماء

يقول الله تعالى: ﴿مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ﴾، أي مختلفاً في الطعم والرائحة والقيمة الغذائية. ويقول سبحانه: ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾، في إشارة واضحة إلى وحدة المصدر. هذه المفارقة بين وحدة المدخلات وتنوع النتائج تمثل محوراً علمياً عميقاً.

العلم الحديث يؤكد أن الماء الذي تمتصه النباتات واحد في تركيبه الكيميائي (H_2O) ، وأن النباتات المتجاورة قد تعيش في نفس التربة وتتعرض لنفس الظروف المناخية، ومع ذلك تختلف ثمارها في المذاق والتركيب الغذائي. فالعنب حلو، والليمون حامض، والفلفل حار، والخس لطيف الطعم، رغم أن مصدر السقي واحد.

يرجع هذا الاختلاف إلى الشيفرة الوراثية الخاصة بكل نبات، إذ تتحكم الجينات في تصنيع السكريات والأحماض والفيتامينات والمركبات النباتية النشطة داخل الثمرة. وهنا يظهر التوافق الدقيق بين التعبير القرآني والحقائق التي كشفها علم الوراثة النباتية الحديث.

اختلاف الألوان ودلالته العلمية

قال تعالى: ﴿ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾. الألوان في النبات ليست مجرد تنوع بصري، بل ترتبط بتركيب كيميائي محدد. فاللون الأحمر في الطماطم والرمان يعود إلى مادة الليكوبين، واللون البرتقالي في الجزر سببه البيتا كاروتين، واللون البنفسجي سببه الأنثوسيانين، أما اللون الأخضر فيرتبط بالكلوروفيل.

هذه المركبات تؤدي وظائف حيوية مهمة، منها العمل كمضادات أكسدة، ودعم جهاز المناعة، والمساهمة في الوقاية من أمراض متعددة. وهكذا يتحول اللون من مجرد صفة جمالية إلى دليل على نظام كيميائي حيوي بالغ الدقة.

ما الذي لم يكن معلومًا زمن النزول؟

في القرن السابع الميلادي لم يكن الإنسان يعرف شيئًا عن الحمض النووي أو الجينات أو المركبات النباتية الدقيقة. ولم يكن مفهوم التنوع الوراثي قد ظهر بعد. ومع ذلك أشار القرآن إلى وحدة الماء، وتجاور الأرض، واختلاف الثمار في الطعم واللون، وهي حقائق لم تتضح أبعادها العلمية إلا بعد قرون طويلة.

دعوة إلى التفكير

يختم الله الآية بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، في توجيه مباشر إلى استعمال العقل والتأمل في سنن الخلق. فالتنوع في النبات ليس فوضى طبيعية، بل نظام دقيق يجمع بين الوحدة والتعدد، ويعكس حكمة الخالق سبحانه وتعالى.

خاتمة

إن الإعجاز العلمي في تنوع الفواكه والخضروات يظهر في الجمع بين وحدة المصدر وتعدد النتائج، وبين بساطة العناصر وتعقيد التكوين الداخلي. وقد عبّر القرآن الكريم عن هذه الحقيقة بأسلوب موجز ودقيق سبق الاكتشافات العلمية الحديثة بقرون طويلة. إن كل ثمرة نراها، وكل لون نتأمله، وكل طعم نتذوقه، هو آية قائمة تدعونا إلى التفكير في عظمة الخالق وإحكام صنعه.

المصادر

- القرآن الكريم.
- تفسير ابن كثير.
- تفسير الطبري.
- مراجع علم فسيولوجيا النبات. (Plant Physiology)

- دراسات علمية في التنوع الوراثي والمركبات النباتية النشطة.